

في ميدان الاجتهاد

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

أستاذ الأدب العربي بكلية اللغة العربية بالأزهر

- ١ -

كيف صنع الإصلاح

ينشد المسلمون الإصلاح في هذا العصر ، وتنشده جامعتهم الأزهرية الكبرى في مصر ، ويمالجون في سبيل ذلك طرقاً ملتوية. عشون فيها إلى أن تنتهي بهم إلى أسوأ مما كانوا فيه ، فتملوا كلمة الجامدين بالرجوع إلى قديمهم المقوت ، ويوافقهم على ذلك بعض من يتظاهر بحب الإصلاح إذا أقبل عهده ، ويخفي في قلبه كرهه وبغضه . ولو أنتم هؤلاء الناس النظر لرأوا الذنب في ذلك يرجع إلى تلك الطرق اللتوية ، لا إلى الإصلاح المنشود الذي دعا إليه جمال الدين الأفغاني والأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، وغيرهما من كبار المصلحين في هذا العصر .

وهذا الإصلاح المنشود يتلخص في كلمتين : فتح باب الاجتهاد في علومنا عامة والعلوم الدينية منها خاصة ، وتأليف كتب جديدة في هذه العلوم تسرى فيها روح الاجتهاد بدل تلك الكتب الميتة الجامدة ؛ أما ما عدا ذلك من أمور الإصلاح فمن الأمور الكعالية التي ضرنا الاهتمام بها أكثر من هذه الأمور الأساسية

ولست بسبيل الكلام في هذا الإصلاح فقد قطعت شوطاً من حياتي في الجهاد فيه ، حتى آل الأمر بنا إلى تلك الطرق اللتوية ، ووجدت في ذلك غرائب وعجائب صرفتني عن العناية بذلك الأمر إلى أمور أخرى من العلم والأدب ؛ وقد تجاوزت فيها أناساً آخرين وحاوروني ، فوجدت علماء الأدب أكرم الناس أخلاقاً ، وأسلمهم طوايا ، وأطهرهم أفلاماً ، ووجدت الخير فيهم مرجواً ، والشر منهم مأموناً ؛ ولست أدري وقد تركتهم إلى هذا الموضوع الديني الخطير أجد أفلاماً مثل أفلامهم ، ونفوساً سمحة مثل نفوسهم ، أم أجد النفوس لا تزال على عهدى بها ، وإن تظاهرت بحب الإصلاح والانتصار له ؟ وقد أكون مخطئاً في ظني ، وأرجو من الله أن أكون مخطئاً فيه ، وأن نكون قد بدلنا نفوساً أخرى تبحث مثل هذه الأمور المهمة في هدوء ،

وتعرف الصواب للمصيب فلا تحسده عليه أو تتعاضى عنه ، وتحسن الظن بمن يطلب الصواب فيخطئه طريقه ، فتأخذه بالتي هي أحسن ، حتى يعرف خطاه وانحأ فيرجع عنه ، ويشكر للذي دلّه عليه وهكذا كان حال سلفنا الصالح رضوان الله عليهم . كان باب الاجتهاد بينهم مفتوحاً على مصراعيه لا يحمل أحد منهم بسببه ضغينة على أخيه ، ولا يحاول قهره على موافقته في رأى خالفه فيه ، إلى أن نبئت فتنة الخوارج المروفة ، ولعبت السياسة بقول الناس فيها ، فكانوا أول من سن في الاسلام أخذ المخالف في الرأى بوسائل القهر ؛ ثم تناهت الحوادث وأتى عصر بني العباس فأروا من الأئمة المجتهدين في عصرهم انكشافاً عن سلطانهم فأخذوا ذلك عليهم ، وجعلوا يصطنعون الوسائل لا يذاتهم ، فأذوا في ذلك أبا حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة الجماعة ، وصاروا ينصرون عليهم خصومهم من المعتزلة ، واستباحوا في ذلك ما استباحوا من الحجر على حرية الرأى ، وتمذيب المخالف لهم فيه بالسجن والضرب والقتل ، وبلغ ذلك شدته في مسألة خلق القرآن المروفة

وكان التعليم من أول الاسلام يتخذ المساجد دوراً له ، فتتولاه الرعية بعيدة عن الحكومة ، كما تتولاه الأم الآن في الشعوب الراقية في أوروبا وأمريكا . وينشأ التعليم في كنفها حرراً لا يتأثر بهوى حاكم ، وينشأ رجاله أحراراً لا تلين قناتهم لظالم وقد أخذ حكام المسلمين في آخر الدولة العباسية يدخلون في أمور التعليم ليكون لهم نفوذ عليه ، وسلطان على زجاله ، فأنشأوا له المدارس الخاصة به ، وحبسوا عليها من الأوقاف الكثيرة مارغب العلماء والتعلمين فيها ، وجعلهم يتنافسون على أبواب الملوك والحكام من أجلها ، فضاغت كرامة العلم والعلماء ، وخضع أهله لمن ييدهم أمر تلك المدارس والأوقاف

ومن أقدم ما بنى في الاسلام من المدارس المدرسة البيهقية المنسوبة إلى البيهقي المتوفى سنة ٤٥٠ هـ ، والمدرسة السعيدية بنيسابور بناها الأمير نصر بن سبكتكين أخو السلطان محمود حين كان والياً بها ، والمدرسة النظامية التي بناها الوزير نظام الملك وزير السلطان ألب أرسلان وابنه ملكشاه ببغداد سنة ٤٥٩ هـ واحتفل بافتتاحها يوم السبت عاشر ذي القعدة من هذه السنة ، وجم الناس على طبقاتهم ليحضروا دروس الشيخ أبي إسحاق

وهكذا أخذت المذاهب الأربعة تتغلب مع الزمن على غيرها من هذه المذاهب حتى تم لها التغلب عليها في القرن السابع الهجري . وأخذ فقهاء هذه المدارس تبعاً لهوى أصحابها من الأمراء يتعصبون لها ، ويتفنون بوجود اتباعها . قال القرظي في خطبته : « فلما كانت سلطنة الملك الظاهر بيبرس البندقداري ولي عصر والقاهرة أربعة قضاء ، وهم شافعي وحنفي ومالكي وحنبلي ، فاستمر ذلك من سنة ٥٦٥ هـ حتى لم يبق في مجموع أمصار الاسلام مذهب يعرف من مذاهب أهل الاسلام سوى هذه المذاهب الأربعة ، وعقيدة الأشعري ، وعمت لاهلها المدارس والخوانك والزوايا والربط في سائر ممالك الاسلام ، وعودى من تمذهب بتغيرها وأنكر عليه ؛ ولم يول قاض ، ولا قبات شهادة أحد ، ولا قدم للخطابة والإمامة والتدريس أحد ما لم يكن مقلداً لأحد هذه المذاهب . وأقبر نهاء هذه الأمصار بوجود اتباع هذه المذاهب وتحريم ماعداها ، والعمل على هذا الى اليوم » وإذا لم يكف هذا الاجمال في بيان ما أنت به يد السياسة من وسائل القهر والاعتراف في احياء بعض هذه المذاهب وامانة بعضها ، ومحاربة الاجتهاد الى حد القضاء عليه في تلك المدارس ، فانا نسوق مثلاً من ذلك في المدرسة المستنصرية التي أمر بإنشائها المستنصر بالله العباسي ، وشرع في ذلك سنة ٦٢٥ هـ وقد تكامل بناؤها سنة ٦٣١ هـ وأنفق عليها أموالاً كثيرة ، واحتفل بافتتاحها في تلك السنة احتفالاً عظيماً حضره بنفسه ، وحضره نائب الوزارة وسائر الولاة والحجاب والقضاة والدرسون والفقهاء ومشايخ الربط والصوفية والوظاظ والقراء والشمرات وجماعة من أعيان التجار الفرياء ، واختير لكل مذهب من المدارس وغيرها اثنان وستون نفساً ، ورتب لها مدرسان ونائباً تدرس ؛ وكان المدرسان محيي الدين محمد بن يحيى بن فضلان الشافعي ، ورشيد الدين عمر بن محمد الفخراني الحنفي ؛ وكان نائبها جمال الدين عبد الرحمن بن يوسف بن الجوزي الحنبلي ، وأبا الحسن علياً المغربي ؛ وجعل لها معيدون لكل مذهب أربعة ، وقسمت الى أربع ، فجعل ربيع القبلة الأيمن لاشافعية ، وجعل ربيع القبلة الأيسر للحنفية ، وجعل الربيع الأيسر على يمين الداخل للحنابلة ، وجعل الربيع الذي على يساره للمالكية . وقد شرط المستنصر في وقفه عليها أن يكون عدة فقهاء ثمانية وأربعين

الشيرازي ، فجاء الشيخ ليحضر فلقبه صبي في الطريق ، فقال ياشيخ كيف تدرس في مكان مفصوب ؟ فرجع الشيخ واحتفى . فلما يسوا منه ذكر الدرس بها أبو نصر الصباغ ولما ملك السلطان صلاح الدين بن أيوب مصر لم يكن بها شيء من المدارس ، فبني بها المدرسة الناصرية لتعليم المذهب الشافعي سنة ٥٦٦ هـ ثم بني المدرسة الصلاحية بالقرافة الصغرى سنة ٥٧٢ هـ مجاورة للإمام الشافعي رضي الله عنه ، وجعل لناظرها أربعين ديناراً في كل شهر ؛ ورتب له في كل يوم ستين رطلاً من الخبز ، وراويتين من ماء النيل ؛ ثم بني أخرى مجاورة للشهد الحسيني ، وجعل دار عباس الوزير العبيدي مدرسة للحنفية . وكان من دواعي إنشاء هذه المدارس تأييد المذاهب التي كان السلاطين يشتدون في نصرتها ، كما فعل صلاح الدين حين استولى على مصر ، فقد حارب فيها مذهب الشيعة الفاطميين الذين حكموا مصر قبله ، وكانت دروس هذا المذهب تاتي في الأزهر وغيره من مساجدكم ، فأبطل هذه الدروس ، وأحيا مذهبي الشافعي ومالك وبنى لها كثيراً من المدارس وفي هذه المدارس أقلل باب الاجتهاد ، وقبرت المذاهب الفقهية عدا هذه المذاهب الأربعة الباقية ؛ وقد كانت هناك مذاهب كثيرة لأهل السنة والجماعة بقي بعضها الى القرنين السابع والثامن الهجريين ؛ ومن هذه المذاهب مذهب البصري والثوري ولم يطل العمل بهما لقلة اتباعهما ؛ ومنها مذهب الأوزاعي ، وقد يطل العمل به بعد القرن الثاني للهجرة ؛ ومنها مذهب أبي ثور ، وقد يطل العمل به بعد القرن الثالث ؛ ومنها مذهب ابن جرير الطبري ، وقد يطل العمل به بعد القرن الرابع ؛ ومنها مذهب الظاهري ، وقد ظلت مدته وزاحم المذاهب الأربعة حتى جعله المقدسي في أحسن التقاسيم رابع المذاهب في زمنه (القرن الرابع) بدل الحنبلي ، وذكر الحنبلي في أصحاب الحديث ، وعده ابن فرحون في الديباج الخامس من المذاهب المعمول بها في زمنه (القرن الثامن) ؛ ثم درس بعد ذلك ولم يبق لأهل السنة والجماعة إلا المذاهب الأربعة . وذكر ابن خلدون أن الظاهري درس بدروس أئمتة ، وإنكار الجمهور على منتحله ، ولم يبق إلا في الكتب ، وربما يكف متكلفو اتحاله عليها لأخذ فقههم منها ؛ فلا يحملون بطائل ، ويصيرون إلى إنكار الجمهور طيبهم

وأمرهم أن يعملوا بما فيها ولا يتمدوه إلى غيره ، فقلت يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا ، فإن الناس قد سبقت اليهم أقاويل ، وسمعوا أحاديث ، ورووا روايات ، وأخذ كل قوم بما سبق اليهم ودانوا به ، فذبح الناس وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم فنحن لئذ في حل من أمر هذه المذاهب التي فرضت علينا فرضاً ، وفي حل من ذلك الحظر على الاجتهاد في أحكام ديننا ، لأنه أتى بطريق القهر ، ولم يتم برضا المسلمين وتشاورهم ، وإنما أمر المسلمين كما حكم الله تعالى شورى بينهم

عبد المتعال الصعدي

وزارة المعارف العمومية

ادارة السجلات والامتحانات

نشرة

للمدارس الثانوية

بشأن ما ينبع في امتحان شهادة الدراسة الثانوية في السنة المكتيبة

١٩٣٥ - ١٩٣٦

توجه الوزارة النظر إلى تحديد ما يمتحن فيه طلبة شهادة الدراسة الثانوية هذا العام على حسب الموضوع بعد :
يمتحن الطلبة في مقرر السنة الرابعة القديم الذي درس في السنة المكتيبة ٩٣٤ - ٩٣٥ ، وفي مقرر السنة الخامسة على حسب المنهج الانتقالي الذي أرسل لمدارس البنين الثانوية بالمنشور رقم ٢ بتاريخ ١٥/٨/١٩٣٥ ولمدارس البنات بالمنشور رقم ١ بتاريخ ٢٩/٨/١٩٣٥ مع مراعاة ما يأتي :

أولاً - في الترجمة يكون الامتحان منث اللغة الأجنبية الأصلية إلى اللغة العربية فقط
ثانياً - في اللغة الأجنبية الأصلية والاضافية تكون الأسئلة على نمط الأسئلة التي سبق وضعها في امتحان العام الماضي

فالمرجو العلم بذلك واتباعه

وما تبنى فقيه ، من كل طائفة اثنتان وستون ، بالشاهرة الوافرة ، والحجرات الدارة ، واللحم الراتب ، إلى غير ذلك من وسائل الاغراء التي لم تتح لغير هذه المذاهب . وقد كان قبر الاجتهاد في هذه المدرسة ، وحجر النظر فيها على العلماء بهذا الشكل في سنة ٦٤٥ هـ أحضر مدرسوها إلى دار الوزير ، فتقدم اليهم ألا يذكروا شيئاً من تصانيفهم ، وألا يلزموا الفقهاء بحفظ شيء منها ، بل يذكروا كلام المشايخ تأديباً معهم ، وتبركاً بهم . فأجاب جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزي مدرس الحنابلة بالسمع والطاعة . وقال سراج الدين عبد الله الشرمساحي مدرس المالكية : « ليس لأصحابنا تعليقة ، فأما النقط من مسائل الاختلاف فما أرتبه » . وقال شهاب الدين الزنجاني مدرس الشافعية ، وأقضى القضاة عبد الرحمن بن اللغاتى مدرس الحنفية : « إن المشايخ كانوا رجالاً ونحن رجال » فكانوا أفضل القوم لإجابة . ثم أوصل الوزير أمر ذلك إلى المنعم بالله ، وكان قد ولي أمر الدولة بعد أبيه المستنصر ، فتقدم اليهم أن يلزموا بذكر كلام المشايخ واحترامهم فأجابوه بالسمع والطاعة . وذهب إمام مدرسي الشافعية والحنفية في الهواء . ولو أنهما استمرا على إياهما لكان جزاؤهما القتل أو نحوه

ونستطيع بعد هذا أن نحكم بأن منع الاجتهاد لم يتم إلا في عصور الظلم ، وبأن قصر الناس على هذه المذاهب الأربعة حصل بوسائل غير مقبولة من القهر والاغراء . وفي يقيننا أنه لو أتيح لغير هذه المذاهب ما أتيح لها من تلك الأوقاف والرواتب لكان حظها من البقاء مثل حظها ، ولقبقت معروفة مقبولة ممن يجهلها اليوم أو ينكرها

وقد حولت هذه الوسائل لأزام الناس بهذه المذاهب قبل هذه العصور فلم يرض بهذا المسلمون حتى أصحاب هذه المذاهب . روى أبو نعيم في الحلية عن مالك بن أنس أنه قال : شاورني هارون الرشيد في أن يملق الموطاء في الكعبة ويحمل الناس على ما فيه ؛ فقلت لا تفعل ، فإن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفوا في الفروع ، وتفرقوا في البلدان ، وكل مصيب . فقال وفقك الله تعالى يا أبا عبد الله

وروى ابن سعد في الطبقات عن مالك بن أنس قال : لما حج المنصور قال لي قد عزمت على أن أمر بكتبتك هذه التي وضعها فتتسخ ، ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين منها نسخة ،